بسم الله الرحمن الرحيم

٧٩ – سُورَة النَّازِعَات

وتسمى سورة الساهرة . والطامّة . وهى مكية . وآيها ست وأربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا)

[٢] (وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا)

[٣] (وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا)

[٤] (فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا)

[٥] (فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا)

« وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا » يعنى الغزاة أو أيديهم . يقال للرامى (نزع فى قوسه) إذا مدها بالوتر . و (نزع فى قوسه فأغرق) و (أغرق النازع فى القوس) إذا استوفى مدّها . ويضرب مثلًا للغلوّ والإفراط . و (غَرْقًا) بمعنى إغراقًا كالسلام بمعنى التسليم ، وهو الإغراق بحذف الزوائد. أو (وَالنَّٰزِعَٰتِ) الكواكب . من (نزع الفرس سنَنًا) جرى طلقًا ، أى الجاريات على السير المقدر ، والحدّ المعين ، مجدّة فى السير ، مسرعة للغاية . « وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا » أى الخيل لأنها تخرج من دار إلى دار . من قولهم (ثور ناشط) إذا خرج من بلد إلى بلد . أو هى السهام . يعنى خروجها عن أيدى الرماة ونفوذها . وكل شىء حللته ، فقد نشطته . ومنه (نشاط الرجل) وهو انبساطه وخفته . أو الكواكب تنشط من برج إلى برج . « وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا » أى الخيل تسبح فى عَدْوها فتسبق إلى العدوّ . وهو مستعار من (سبح فى الماء) لكنه ألحق بالحقيقة لشهرته . أو هى الكواكب تسبح فى الفلك . لأن مرورها فى الجو كالسبح ، كما قال تعالى[1] (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) . « فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا »

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] .

أى الخيل تسبق إلى العدوّ فى حومة الوَغَى . أو الكواكب السيارة تسبق غيرها فى السير، لكونها أسرع حركة . « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » أى الخيل . أسند إليها أمر تدبير الظفر مجازاً، لأنها سببه . أو المدبرات مثل المعقبات . أى أنه يأتى فى أدبار هذا الفعل الذى هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها ، الأمر الذى هو النصر . أو هى الكواكب تدبر أمراً نيط بها . كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات ، مجازاً أيضاً . لأنها سببه . أو هى الملائكة تدبر ما نيط بها من أمر الله تعالى . وقد جوّز فيما قبلها أن تكون الملائكة أيضاً . واللفظ الكريم متسع لما ذكر من المعانى بلا تدافع . ولا إمكان للجزم بواحد ، إذ لا قاطع . ولذا قال ابن جرير[1]: الصواب عندى أن يقال أنه تعالى أقسم بالنازعات غرقاً، ولم يخصص نازعة دون نازعة . فكل نازعة غرقاً، فداخلة فى قَسَمِهِ ، مَلَكاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك . وكذا عم القَسَم بجميع الناشطات من موضع إلى موضع . فكل ناشط فداخل فيما أقسم به ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها، بأن المعنىّ بالقَسَم من ذلك، بعض دون بعض . وهكذا فى البقية . وكلامه رحمه الله متجه للغاية . إذ فيه إبقاء اللفظ على شموله، وهو أعم فائدة وعدم التكلف للتخصيص بلا قاطع . وإن كانت القرائن واستعمال موادها فى مثلها وشواهدها، مما قد يخصص الصيغ . إلا أن التنزيل الكريم يُتوَقّى فى التسرُّع فيه مالا يُتوَقّى فى غيره.

لطائف :

قال أبو السعود: العطف مع اتحاد الكل ، بتنزيل التغاير العنوانىّ منزلة التغاير الذاتىّ . كما فى قوله[2] :

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور، حقيق بأن يكون على حياله،

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) ورد هذا البيت فى الخزانة (١ / ٢١٦) غير منسوب .

وكذلك هو فى (معانى القرآن) للفرّاء (١ / ١٠٥) .

مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام، بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه. والفاء فى الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة . و (غَرْقاً) مصدر مؤكد بحذف الزوائد . وانتصاب (نَشْطاً) و (سَبْحاً) و (سَبْقاً) أيضاً على المصدرية . وأما (أَمْرًا) فمفعول للمدبرات . وتنكيره للتهويل والتفخيم. والمقسَم عليه محذوف، تعويلاً على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ، ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه، وهو (لتبعثن) وبه تعلق قوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ)

[٧] (تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ)

[٨] (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)

[٩] (أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ)

[١٠] (يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ)

« يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ » أى الواقعة التى ترجف عندها الأجرام الساكنة. أى تتحرك حركة شديدة وتتزلزل زلزلة عظيمة. فالإسناد إليها مجازىّ لأنها سببه . أو التجوز فى الطرف بجعل سبب الرجف راجفاً . أو الراجفة الأجرام الساكنة التى تشتد حركتها حينئذ ، كالأرض والجبال . فتسميتها راجفة باعتبار الأول . قال الشهاب : ولو فسرت الراجفة بالمحركة جاز ، وكان حقيقة . لأن (رجف) يكون بمعنى حرّك وتحرّك .

« تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ » أى السماء ومافيها . تردفها فتنشق وتنتثر كواكبها . ولوقوع ذلك فيها بعد الرجفة الأولى ، جعلت رادفة لها . أو الرادفة النفخة الثانية لبعث يوم القيامة .

قال الحسن : هما النفختان. أما الأولى فتميت الأحياء . وأما الثانية فتحيي الموتى. ثم تلا الحسن[1] (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

(١) [٢٩ / الزمر / ٦٨] .

ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) « قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ » أى شديدة الاضطراب، خوفا من عظيم الهول النازل « أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ » أى أبصار أهلها ذليلة، مما قد علاها من الكآبة والحزن ، من الخوف والرعب . وقوله تعالى « يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ » قال ابن جرير[1] : أى يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركى قريش ، إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات، فراجعون أحياء كما كنا ؟ وقال أبو السعود : حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به ، إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمى ، وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار. أى يقولون، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، منكرين له متعجبين منه: أئنا لمردودون بعد موتنا فى الحافرة ؟ أى فى الحالة الأولى . يعنون الحياة . من قولهم (رجع فلان فى حافرته) أى فى طريقته التى جاء فيها فحفرها. أى أثر فيها بمشيه. وتسميتها (حافرة) مع أنها محفورة كقوله تعالى[2] (فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) أى منسوبة إلى الحفر والرضا. أو كقولهم (نهاره صائم) على تشبيه القابل بالفاعل . أى شبه القابل للفعل بمن يفعله ، لتنزيله منزلته . فالاستعارة فى الضمير المستتر ، وإثبات الحافرية له ، تخييل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً)

[١٢] (قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

[١٣] (فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ)

[١٤] (فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ)

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٢١] .

« أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً » أى بالية . وقرئ ناخِرَةً . من (نخر العظم) بلى . فصار يمرّ به الريح فيسمع له نخير ، وقوله تعالى « قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » أى ذات خسر . أو خاسرة أصحابها . أى إن صحت فنحن إذاً خاسرون . قال ابن زيد : وأى كرة أخسر منها؟ أحيوا ثم صاروا إلى النار ، فكانت كرة سوء .

وقال أبو السعود : هذا حكاية لكفر آخر لهم ، متفرع على كفرهم السابق . ولعل توسيط (قالوا) بينهما للإيذان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار، مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنها فى كافة أوقاتهم . حسبما ينبىء عنه حكايته بصيغة المضارع . أى قالوا ذلك بطريق الاستهزاء ، مشيرين إلى ما أنكروه من الردة فى الحافرة . وقوله تعالى « فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ » تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخرة التى عبروا عنها بالكرّة . فإن مداره لما كان استصعابهم إياها ، رد عليهم ذلك ، فقيل : لا تستصعبوها فإنما هى صيحة واحدة . أى حاصلة بصيحة واحدة . وهى النفخة الثانية . وفيه تهوين لأمر الإعادة ، على وجه بليغ لطيف « فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ » أى على ظهر الأرض أحياء .

قال ابن جرير[1] : والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة (قال) وأراهم سموا ذلك بها لأن فيه نوم الحيوان وسهرها . فوصف بصفة مافيه . وقيل لأن السراب يجرى فيها . من قولهم (عَينٌ سَاهِرَة) للتى يجرى ماؤها ، وفى ضدها نائمة . والسهر على الأول بمعناه المعروف ، والتجوز فى الإسناد .

وفى الثانى مجاز على المجاز ، لشهرة الأول التى ألحقته بالحقيقة. ثم ذكّر سبحانه الكفرة ما حل بمن هو أشد منهم قوة ، لما طغوا ، ترهيباً وإنذاراً ، بقوله تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ)

[١٦] (إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى)

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ » أى خبره حين ناجاه ربه تعالى . قال أبو السعود : ومعنى (هَلْ أَتَىٰكَ) إن اعتبر هذا أول ماأتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام، ترغيب له فى استماع حديثه . كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به . وإن اعتبر إتيانه ، قبل هذا ، وهو المتبادر من الإيجاز فى الاقتصاص ، حمله عليه الصلاة والسلام على أن يقرّ بأمر يعرفه قبل ذلك . كأنه قيل أليس قد أتاك حديثه ؟ .

وقال الشهاب : المقصود من الاستفهام التذكير لا التقرير ، كما قيل . ولا مجافاة فى المعنى على كلّ ، كما لا يخفى « إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى » إلى حين ناداه بالوادى المطهر المبارك . وهو واد فى أسفل جبل طورسيناء من برية فلسطين. و (إِذْ) ظرف للحديث لا للإتيان ، لاختلاف وقتيهما و (طُوًى) اسم لذلك الوادى . أو مصدر لنادى. أو المقدس. أى ناداه نداءين . أو المقدس مرة بعد أخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ)

[١٨] (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ)

[١٩] (وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ)

« ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ » أى عتا وتجاوز حدّه فى العدوان على بنى إسرائيل، وانتحال صفات الربوبية ، ونسبتها إلى نفسه « فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ » أى تتزكى

وتتطهر من دنس الشرك والطغيان . و (إِلَىٰٓ) متعلقة بمبتدأ محذوف . أى هل لك سبيل أو رغبة إلى أن تتزكى ؟

وقال أبو البقاء : لما كان المعنى أدعوك ، جىء بـ (إِلَىٰٓ) فجعل الظرف متعلقاً بمعنى الكلام أو بمقدر يدل عليه « وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى أرشدك إلى علم ما يرضيه عنك . وذلك الدين القيم « فَتَخْشَىٰ » أى عقابه من سلب الملك وإذاقة البأس مكان النعم . وذلك بأداء ما ألزمك من فرائضه واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه . وفيه إشارة إلى أن الخشية مسببة عن العلم ، كما فى آية[1] (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟) أى العلماء به .

قال الزمخشرىّ : ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر . من خشى الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شر . وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض . كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرفيق ، ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوّه . كما أمر بذلك فى قوله[2] (فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ)

[٢١] (فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ)

[٢٢] (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ)

[٢٣] (فَحَشَرَ فَنَادَىٰ)

[٢٤] (فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ)

[٢٥] (فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ)

[٢٦] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ)

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٤] .

« فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ» أى الدلالة الكبرى على أنه لله رسول أرسله إليه. والفاء فصيحة، تفصح عن جملٍ قد طويت، تعويلًا على تفصيلها فى السور الأخرى. أى فذهب وبلغ ورجع وتُحُدِّىَ ، فأراه الآية الكبرى . وهى على ما قاله مجاهد ، عصاه ويده . أى عصاه إذ تحولت ثعبانا مبينا . ويده إذ أخرجها بيضاء للناظرين . وإفرادهما لأنهما كالآية الواحدة فى الدلالة . أو هى العصا لأنها كانت المقدمة والأصل . والبقية كالتبع . قيل : وكونها كبرى باعتبار معجزات مَن قبله من الرسل . أو هو للزيادة المطلقة «فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ» أى فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة ، ودعاها سحراً، وعصاه فيما أمره به من طاعة ربه وخشيته إياه « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى أعرض عما هدى إليه. أو انصرف عن المجلس كبراً «يَسْعَىٰ» أى يجدّ فى معارضة الآية بالمكايد الشيطانية والحيل النفسانية. أو أدبر بعد ما رأى الثعبان، مرعوباً مسرعاً فى مشيه « فَحَشَرَ » أى جمع السحرة ، أو قومه وأتباعه « فَنَادَىٰ » أى فى المجمع بنفسه أو بمناد «فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ» أى على كل من يلى أمركم. وفى (التنوير): أى أنا ربكم ورب أصنامكم الأعلى فلا تتركوا عبادتها .

قال القاضى : وقد كان الأليق به ، بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ، أن لا يقول هذا القول . لأن، عند ظهور الذلة والعجز كيف يليق أن يقول (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) ؟ فدلت هذه الآية على أنه فى ذلك الوقت صار كالمعتوه الذى لا يدرى ما يقول . انتهى .

وهذا على أنه أراد بالرب الخالق والموجد. والظاهر أن مراده ذو السلطان الأعلى والنفوذ الأقوى . وأنه الذى يستأهل الطاعة دون غيره . ولا يخفى ما فيه من جحود قدرة الله تعالى التى هى فوق قدرته ، والكفر بآية موسى والصد عن دعوته . ولذا أخذ أشد الأخذ . فإنه لم يزل فى عتوه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر ، عند خروجهم من مصر ، فأغرقه الله تعالى فى البحر. وهو معنى قوله تعالى« فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ » أى عذبه عذابهما. أى أن أخذه لم يكن مقصوراً على الإغراق وحده، بل نكل به وعذبه عذاب يوم القيامة . و (نكال) مفعول مطلق ا (أخذ) بتأويل فى الأول أو فى الثانى، والإضافة من قبيل إضافة

الموصوف إلى الصفة . وقيل الآخرة هى قوله (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) والأولى هى تكذيبه موسى حين أراه الآية

قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر. لأنه تعالى قال (فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ* فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ* ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ* فَحَشَرَ فَنَادَىٰ* فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) فذكر المعصيتين ثم قال (فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ) فظهر أن المراد أنه عاقبه على هذين الأمرين. انتهى.

وما ذكره القفال كان وقع فى قلبى قبل أن أراه . وأرانى فى إبثار له . ثم ختم تعالى القصة بقوله « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ » أى فى أخذه وما أحل به من العذاب والخزى ، عظة ومعتبراً لمن يخاف الله ويخشى عقابه، ويعلم أن هذه سنته فى كل من يقاوم الحق ويحاربه. فإن نبأ الأولين عبرة للآخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا)

[٢٨] (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا)

[٢٩] (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا)

[٣٠] (وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا)

[٣١] (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا)

[٣٢] (وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا)

[٣٣] (مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ)

« ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ » خطاب للمكذِّبين بالبعث من قريش ، المتقدم قولهم أول السورة ، بطريق التبكيت ، لتنبيههم على سهولته فى جانب القدرة الربانية . فإن من رفع السماء على عظمها ، هيّن عليه خلقهم وخلق أمثالهم ، وإحياؤهم بعد مماتهم .

كما قال سبحانه [١] (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ) . وقوله تعالى [٢] (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم) ثم بيّن كيفية خلقها بقوله « بَنَىٰهَا » قال ابن جرير [٣] : أى رفعها فجعلها للأرض سقفاً . وقال الإمام : البناء ضم الأجزاء المتفرّقة بعضها إلى بعض ، مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة . وهكذا صنع الله بالكواكب . وضع كلًّا منها على نسبة من الآخر ، مع ما يمسك كلًّا فى مداره ، حتى كان عنها عالم واحد فى النظر ، سمى باسم واحد وهو السماء التى تعلونا . وهو معنى قوله « رَفَعَ سَمْكَهَا » أى أعلاه و(السمك) قامة كل شىء وقد رفع تعالى أجرامها فوق رؤوسنا « فَسَوَّىٰهَا » عدلها بوضع كل جرم فى موضعه « وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا » أى جعله مظلماً . قال ابن جرير [٣] : أضاف الليل إلى السماء ، لأن الليل غروب الشمس ، وغروبها وطلوعها فيها ، فأضيف إليها لما كان فيها ، كما قيل (نجوم الليل) إذ كان فيه الطلوع والغروب . « وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا » أى أبرز نهارها . و (الضحى) انبساط الشمس وامتداد النهار . وإيثار الضحى لأنه وقت قيام سلطان الشمس وكمال إشراقها . « وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ » أى بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإبراز الأضواء « دَحَىٰهَا » أى بسطها ومهدها لسكنى أهلها ، وتقلبهم فى أقطارها « أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا » أى بأن فجر منها عيوناً وأجرى أنهاراً « وَمَرْعَىٰهَا » أى رعيها وهو النبات .

قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الإنسان . فأريد به هنا ، مجازاً ، مطلق المأكول للإنسان وغيره . فهو مجاز مرسل .

وقال الطيبىّ : يجوز أن يكون استعارة مصرحة . لأن الكلام مع منكرى الحشر بشهادة قوله (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً) كأنه قيل : أيها المعاندون الملزوزون فى قَرَن البهائم ، فى التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

«وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا» أى أثبتها فيها «مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» أى انتفاعاً إلى حين. قال أبو السعود : ونصبه إما على أنه مفعول له ، أى فعل ذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم ، لأن فائدة ماذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى، واصلة إليهم وإلى أنعامهم. فإن المراد بالمرعى مايعم مايأكله الإنسان وغيره ـ كما تقدم ـ وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر. أى متعكم بذلك متاعاً. أو مصدر من غير لفظه، فإن قوله تعالى (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) فى معنى متع بذلك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ)

[٣٥] (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ)

[٣٦] (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ)

[٣٧] (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ)

[٣٨] (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

[٣٩] (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

[٤٠] (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ)

[٤١] (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ » أى الداهية العظمى التى تطمّ على كل هائلة من الأمور ، فتغمر ماسواها بعظيم هولها . وهى القيامة للحساب والجزاء « يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَاسَعَىٰ » أى ماعمل من خير أو شر . وذلك بعرضه عليه « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ » أى أظهرت نار الله لأبصار الناظرين « فَأَمَّا مَن طَغَىٰ » أى أفرط فى تعديه ومجاوزته حد الشريعة والحق، إلى ارتكاب العصيان والفساد والضلال « وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى متاعها وشهواتها، على كرامة الآخرة وما أعد فيها للأبرار « فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » أى

مأواه ومرجعه « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ » أى مقامه بين يديه للسؤال، أو جلاله وعظمته. أى اتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه « وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ » أى فيما يكرهه الله ولا يرضاه منها ، فخالفها إلى ما أمره به « فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ » أى مصيره يوم القيامة. وجواب (إذا) محذوف لدلالة التقسيم عليه . تقديره: ظهرت الأعمال . أو انقسم الناس قسمين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا)

[٤٣] (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ)

[٤٤] (إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ)

[٤٥] (إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا)

[٤٦] (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا)

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا » أى إقامتها . أى متى يقيمها الله ويكوّنها . قال الناصر : وفيه إشعار بثقل اليوم كقوله[1] (وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) ألا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل ، كمرسى السفينة وإرساء الجبال « فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ » أى فى أى شىء أنت من ذكر ساعتها لهم . أى ليس إليك ذكرها لأنها من الغيوب، فلا معنى لسؤالهم إياك عنها. ولذا قال « إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ » أى منتهى علمها « إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا » أى ما بعثت إلا لإنذار من يخاف حسابها ، وعقاب الله على إجرامه . ولم تكلف علم وقت قيامها « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا » أى كأن هؤلاء المكذبين بها ، وبما فيها من الجزاء والحساب، يوم يشاهدون وقوعها ، من عظيم هولها ، لم يلبثوا فى الدنيا أو فى القبور إلا ساعة من نهار ، بمقدار عشية أو ضحاها . وإضافة الضحى إلى العشية ، لما بينهما من الملابسة ، لاجتماعهما فى يوم واحد .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٢٧] .